بين الشرق والغرب

قمر مصر ...

في سماء باريس

الأستاذ راشد رستم

صديقي ...

لقد عدتَ يا صديقي إلى مصر بعد أن أكملتَ في الغرب دراساتك ، وها أنت ذا اليوم من آحاد الوطن الذين بهم يستبشر ، ومنهم الخير ينتظر .

ولقد أدبتُ لك ما طلبت مني ـ فزودت لك بما شئت من النظرات ، ومررت على ماسألتني أن أمر عليه من المشاهد ، وجستُ خلال ديار أردتَ مني أن أذكرك فيها ، كما أني وصلت لك ماانقطع برحيلك مع من كان بينك وبينهم مودة ...

ولعل فيما قلت لك به من الرغبات مايخفف عني ما أنت فيه الآن ، كما تقول ، من « وحشة المكان وغرابة السكان » ...

... أليس غريباً حقا أن يعود الوطن مكاناً للوحشة وأن يصير أهله موضعاً للغرابة ! .

* * *

لا تحزن يا صديقي على عودتك من هنا « هكذا سريعاً » كما تقول ، مع أنك مكثت فينا خمس سنوات كاملات ! وأنك خلفتنا هنا بعدك « نستمتع بحياة الغرب الهنية طويلا ، ونرشف من بحرها الطامي كثيراً وكثيراً » ..

نأكد يقينا أنك السابق في رحلتك ، وأنك الفائز في عودتك ، أما نحن فسنحتمل الغربة زماناً آخر ، إلى أن نلحق بك لنجتمع كما كنا نجتمع ، ونلتقي مثل تلاقينا ، ونلهو ونعمل كما كنا نلهو ونعمل ، ولا نحسبن للفوارق التي بيننا وبينك الآن حسابا ، فقد يستمتع المرء بالقليل كثيراً ، ويلهو بالكثير قليلا ...

أتظن يا صديقي أنه في الإمكان أن يبقى هنا كل من يجيء إلى هنا ؟ أم أن له أن يبقى ليكون عليه أن يعود ! ...

إن الأوطان تنتظر أبناءها ...

« وهذه مصر أم الدنيا ، ولعل الذين يقولون عنها ذلك هم الذين لم يروا غيرها . أو لعلهم هم الذين جاءوها من بلاد أقل منها » على رسلك يا أخي ... ما هكذا يقال عن الأوطان ...

وما لنا وهذا التحليل بل هذا التعلل ! . لماذا فكرت فيه ؟ ولما ذا يخطر على بالك وقد عشت في بلاد كلها وطنية وحماسة للوطن ! أليس بلاد كل إنسان هي « أم الدنيا » عنده ؟

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام

إن مصر هي مصر ، وهي أم الدنيا ، وهي مما ليس منه بد ، رضيت بذلك يا صديقي أم حملت به تحميلا ...

وها أنا ذا أترك هذا الأمر قليلا . . فقد سرح مني الفكر أمام هـــذه الخاطرات الخطرات . . وما جئتنا به من النزعات الغريبات ، بل النزوات الغريبات ...

وقد لاحت مني نظرة إلى النافذة نحو العلاء في السماء . وقد سكن الليل إلا من دوي المدينة العظيمة الساهرة ، فإذا قرباريس يطل خلال الستائر الشفافة ، ساخراً من ضوء مصباحي الصغير ، ضاحكا مما أنا فيه من تفكير ، وما جئت به أنت يا صديقي من تعبير ...

إن هذا القمر يذكرني بأصفى سماء يسبح فيها قمر .. يذكرني « بأقمار » في مصر كثيرة . في شمالها وصعيدها ، في غيطانها وعند غدرانها ، في الريف والحضر ، عند السواقي وتحت الشجر ، على رمال الصحراء ، عند سفح الهرم . بين المعمور وبين المهجور ، في البحر وفي النهر ، في الليل وبعض النهار ، وحيداً وغير وحيد ، ثم قمراً في آخر الليل عالقاً بذيل الظلام ، مختفياً بموكب الفجر ، مختفياً أمام ذات الخدر وقد أزاحت عن وجهها الحجاب ...

هذا القمر المصري لا أنساه وصوت المزمار البلدي الشجي آخر الليل عند سفح الهرم ، والأربعون قرناً تشاطرنا الحظ والإيناس ...

هذا القمر لا أنساه مع نغمات الغاب ، في جلسة الحصير بالريف ، وقد نام أهل القرى في غسق الليل من قسوة النهار ، إلا قليلا منهم الساهر السامع ، يستمتع ويلتمس بنغمات الصبا والبياتي على صوت هذا الناب ، والهم به قد غاب ، وتلك المواويل

الحر وفيها أجناس الناس أجناس ، وفيها غرام أهل الغرام أموكول إلى من هو رابض بين الضلوع ، وإلى ماهو صاعد مع الأنفاس …

هذا القمر الساخر لا أنساه وهو ينظر إلينا صامتاً ونحن فى البيداء . . فيزيد التيه تيها ، ويجعل من الحقيقة خيالا ومن العقل خبالا ، ومن الرمال حبالا . . . ومن النفس حالا وحالا – هنالك فى العراء ، وسط رهبة السكون المخيف يزداد المجهول فى علمنا مجهولا …

هذا القمر الباسم لاأنساه فى بيتنا الكبير العتيق ذى الحركة المدوية نهاراً ، والسكوت المهيب ظلاماً ، وقد أطل القمر على صغيراً كما يطل الليلة على كبيراً . وكانت مربيتى العجوز ، وقد احتوتنا رهبة الجدران العالية والغرف الواسعة ، تقول لى : اطفىء المصباح ياولدى . فهذا القمر ما أحلاه ، وهذا السناء ما أبهاه، ثم تتولانا وحشة الليل فتأخذنا سنة من النوم، ثم نصحو فإذا القمر قد تحرك فى بروج السماء قليـــلا … فتقول العجوز : سبحان الخلاق ! …

وها أنا ذا اليوم هنا فى باريس أطفىء الليلة هذا المصباح كما أطفأت أخاله من قبل ، فى تلك الليالى الخوالى ، وهذا هو القمر لايزال ما أحلاه ، وهذا هو الضياء لايزال ماأبهاه …

وأنت يا قمر باريس ! هل أنت قمر ذاك الزمان ، وقمر ذلك البيت الكبير العتيق ، وقمر مربيتى العجوز ! أم زادتك هـذه السنون الثلاثون تحويلا وتحويراً ، كما زودتنى الليالى والأيام تحميلا وتعذيراً …

هنا لك كنت تسمع أيها القمر حديثاً ساذجا ، بين صغير وعجوز ، كلاهما مغرم بالقمر المنير وبما يترى الوجه المنير فى خيال هادىء ولطف جميل .

هنا لك كان يسمع الصغير أحاديث العجوز ، وهى تناجى القمر تسأله عن كل شىء وتطلب منه كل شىء ، تدعوه أن يحمل لها فى رهبة الليل وجلال الصمت سؤلها عند ربهـا « فالق الحب والنوى ، وفاطر السموات العلا » تسأله أن يحمل سلامها إلى أهلها فرداً فرداً ، وأن يعود إليها فى غدها لتراه فى غدها …

ثم تقول وكأنها قد أدت صلاتها – نم يا ولدى . نم وادع ربك يستجب لك ، وأنت ياقمر مسّيت خيراً وفى حفظ الله … »

ثم تقرأ الفاتحة وتنام إلى الصباح …

نعم إن وجه هذا القمر يذكرنى الليلة تلك الأحاديث وذاك النغم وذلك الجو السحرى البرىء ، فيثير منى فى هذا الغرب وفى هذه السن تفكيراً . . قد يكون عن تلك السذاجة تكفيراً …

وإن المرء لينعم بالخيال كما يشقى بالذكرى ، على أنه لا يدرى أكان خيراً له أن تقف به الليالى أم أنها به تجرى …

وها هو ذا القمر يختفى وراء السحب وإلا فستخفيه منازل باريس . . فأين سهلك الفسيح يا مصر . . حيث يمتد البصر فيذهب فيه مع النهاية إلى اللانهاية …

أين النخيل يا مصر لكى يختفى هذا القمر خلالها كما يختفى وجه الحسناء خلال أصابع الحسناء …

يا صديق …

هذا القمر أول ماعرفناه كنا فى مصر ، وحقا إن لمصر قمرها كما أن لها غير القمر

أما أن يكون لمصر كل ما لغيرها ، فتلك أمنية يرجوها الجميع لها ، ولكن أين الشرق من الغرب ، وأين مابينهما من خيالات الحقيقة ، وحقائق الخيال …

فاجعل الأمر سهلا ، ولا تحملنا مالاطاقة لنا به ، ولا تجعل مصراً من الغرب وهى فى الشرق ، بل اجعل لمصر فى الشرق ما أمثلها فى الغرب .

اجعل من مصر أعظم ما يمكن أن يكون من مصر ، وستجدن منها إذن كل ما تطمع من حياة ذقتها غربا وتريدها شرقا …

راشد رستم

أطلب نسختك قبل نفادها من كتاب :

دفاع عن البـــلاغة

فلم يبق منه إلا نسخ محدودة

يطلب من دار الرسالة

وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد